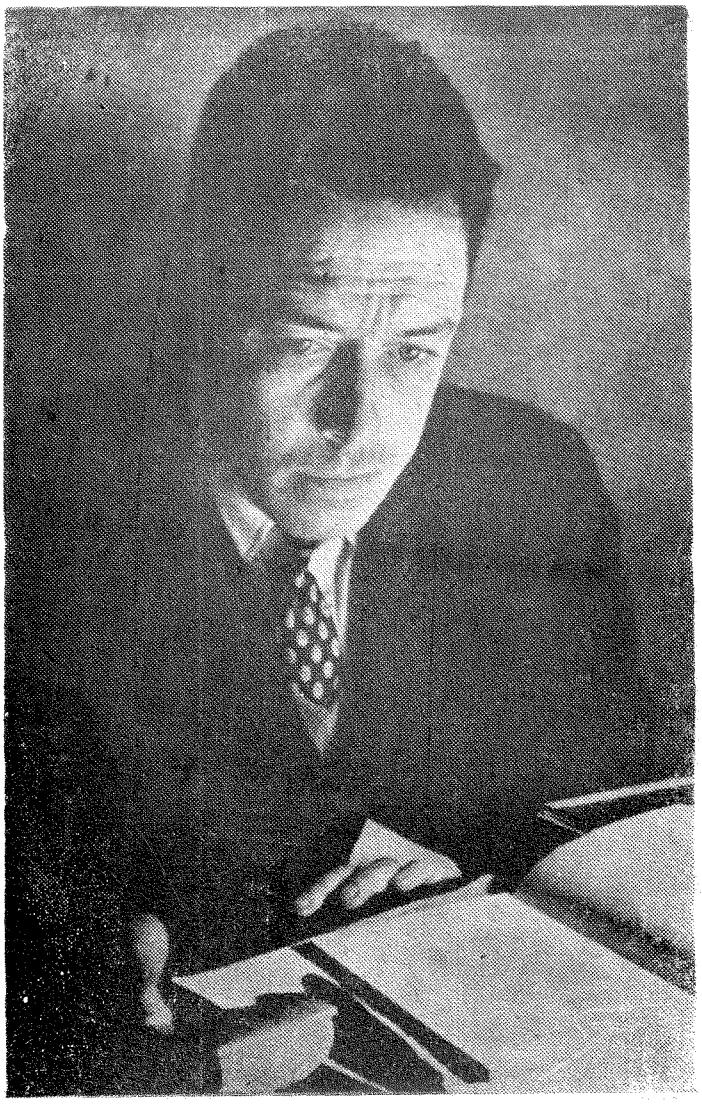

كامو والتمزق ...

بقلم الدكتور سهيل ادريس

كان مصرع البير كامو ، في حادث اصطدام ، الحلقة الاخيرة من سلسلة « العبث » التي كان كامو يعتقد بأنها تقود حياتنا البشرية كلها . والحق انه لا يمكن لشيء ان يجسد « لا معنى » الحياة كهذه الميتة التي تطبع بطابع التفاهة كل جهد وتطلع وشوق يحس به الانسان ليتحرر من التفاهة . ولعل هذه النهاية هي خير تطبيق للفلسفة العبثية التي كشف عنها اول كتاب لكامو «اسطورة سيزيف» ولعلها في الوقت نفسه اجهاض حاسم لفلسفة « التمرد » التي حاول الكاتب الفرنسي ان يخرج بها من حدود السلبية الى حدود الايجابية ، واضعا بذلك اسس «اخلاقية» صارمة لم ينته اليها زميله سارتر مثلا .

وقد يكون ذا مغزى عميق ان يتحدث سارتر عن هذه الاخلاقية لدى كامو ، فيكتب اثر مصرعه (١) بأنه «كان يمثل في هذا القرن ، وضد التاريخ ، الوريث الحالي لهذا الصف الطويل من الاخلاقيين الذين كانت آثارهم تشكل ابدع ما في الادب الفرنسي واجده ـ لقد كانت نزعته الانسانية العنيدة ، الضيقة الصافية ، القاسية الشهوانية ، تشهر معركة اليمة ضد احداث هذا الزمن الكثيفة الفاقدة الانسجام . غير انه ، بعناد رفوضه ، كان يؤكد في قلب عصرنا ، وفي وجه المكافيليين ، ووجه عجل الواقعية الذهبي ، وجود العنصر الاخلاقي ».

على اننا ينبغي الا نرى في آثار كامو خطا تطوريا منسجما ، لان هذه الاثار لم تكتمل بعد ، من جهة ، فهي منقطعة ، ناقصة ، ولان لحظتي العبث والتمرد ليستا ، من جهة اخرى ، لحظتي تتابع واستطراد ، فهما في نزاع ابدي مستمر ليست الغلبة فيه لاحدهما بشكل نهائي . ولعل هذا الصراع الموصول هو الذي يلقي هذا الظل من التمزق على جملة آثار كامو ، وعلى حياته بصورة خاصة .

هذا التمزق ، في اطار فلسفته ، نجده بصورة واضحة في فكرة الانتحار الذي « يعني بكل بساطة : الاعتراف بان الحياة لا تستحق ان تعاش » ولكن بالرغم من عدم جدوى هذه الحياة وعبثيتها ، فان كامو يرفض الانتحار ، لان الانتحار هو رفض للتناقض وللامعنى اللذين هما خصيصتا الوضع البشري. فما العمل اذن؟ ما معنى ان يكون الانسان انسانا ؟ ان ذلك لا يعني الا ان نقيم حتى النهاية « المجابهة اليائسة بين السؤال البشري وبين صمت العالم . » وما دام الانسان ينعم بهذه الحاسة التي نسميها « الوعي » ، فلا مفر له من هذا التمزق الذي ينتج عن ادراك العبث من جهة، وعن رفض وضع حد لهذا العبث الا بالتمرد. صحيح انه ليس ثمة ما هو موجود ، ولكن الانسان يبقى مع ذلك « قيمة » . وينبغي ان ننقذ هذه القيمة ، لانه النبع والمصدر . وسيكون هذا الانقاذ عن طريق الاخوة على غير ما وهم ، وعن طريق العمل من غير امل. وهذا مغزى رواية « الطاعون » : ان الدكتور ريو يعمل كل ما يستطيع عمله، في مدينة وهران المعزولة بالطاعون ،من غير ان يؤمن بشيء. ونحن لا نجد الحنان والنزعة الغنائية الا في مشاعره ، اما في افكاره ، فليس الا الصرامة .. فحتى موت طفل « اكثر الامور ظلما على الارض » لا يبلغ ان يعكر حرصه على العمل او يضعف حسه للصراع .

واذن ، فان انسان كامو ، في دراساته ورواياته ، من « اسطورة سيزيف » حتى « السقوط » مرورا بـ «الغريب» و « الانسان المتمرد » و « الطاعون » يظل هذا الكائن الممزق ، حتى حين يتمرد . يظل سلبيا تقريبا حتى في ايجابيته ، لانه يعمل بلا امل ، ولانه لا يستطيع الا ان يعمل، وهكذا يجد قارىء كامو انه مدفوع الى ان يتساءل : وهل في ذلك انقاذ حقيقي ؟ هل التمزق انقاذ ، ان لم يتجاوز

(١) راجع العدد ٥٠ من مجلة « فراس اوبسرفاتور »

نفسه الى القاء بعض المراسي التي يستطيع الغريق ان يتشبث بها ؟

ان هذه الاسئلة هي التي تدفعني الى الاعتقاد بأن عمل كامو الكتابي لم ينته بعد ، وان مقتله يدع هذا العمل ناقصا غير ناجز .(٢)

ولكن ذلك لا ينهي المشكلة ، بل لعله يلح علينا في طرح السؤال : ما تفسير هذا التمزق لدى مؤلف « اسطورة سيزيف » ؟ واي شكل يتخذه هذا التمزق في حياته ؟

نحن نعتقد بان مأساة الجزائر تكمن وراء هذا التمزق ، ولو كان كمونها خفيا . والواقع ان موقف كامو من القضية الجزائرية لم يكن موقفا موحدا حاسما . كان دائما موقفا مشوبا بالقلق والتمزق ، ولعل ذلك كان يؤدي الى فترات متقطعة يؤثر كامو ان يلتزم فيها الصمت المطلق .

ولا فائدة من ان ننكر بأن كامو كان يؤمن في اول الامر بان قدر الجزائر ينبغي ان يظل قدرا فرنسيا ، لانه كان يخشى ، لو اعطي الشعب الجزائري حريته ، ان يصاب ببؤس عظيم ، وان يؤدي ذلك الى انغلاق الجزائر على عصبيتها ، بدلا من انفتاحها على اوروبا .. وليس لنا ان نبرر هذا الموقف ، فانما هو مستوحى من منطق استعماري كان الفكر الحر يربأ بكامو ان يستعين به . والحق ان هذا الموقف اثار كثيرا من المفكرين الفرنسيين الاحرار فسجلوا به على كامو مأخذا كبيرا . ولكننا لا نستطيع ان نتناسى ان كامو قد كتب عام ١٩٤٥ بضع مقالات ارسلها من الجزائر عن الاضطهاد الذي كان يتعرض له الجزائريون . ولعله كان من اوائل الصحفيين الفرنسيين الذين اطلقوا صيحة الخطر حول الموقف في الجزائر ، وكان من نتيجة ذلك ان ابعد من الجزائر في وقت السلم . وان مراجعة هذه المقالات تكشف عن انه قد تنبأ بكل شيء ، بما في ذلك الثورة الجزائرية ، وردود فعل المتطرفين من الفرنسيين ، وفساد الادارة الفرنسية ، وتزوير الانتخابات وكل ما يتصل بآلة الاضطهاد ، ومن هذه المقالات استمد بعض الكتاب الذين يناهضون الاستعمار الفرنسي في الجزائر حججهم وبراهينهم .

وفي باريس ، انضم كامو الى اسرة تحرير جريدة « الاكسبريس » الاسبوعية ، وكتب عام ١٩٥٥ مقالا يرد به على السيد بومنجل ، لسان حال جبهة التحرير الجزائرية اليوم ، ويقترح فيه معه عقد طاولة مستديرة يجتمع حولها كل ممثلي الرأي العام الجزائري ، وكانت جبهة التحرير

---

(٢) اعلنت بعض الصحف الفرنسية ان لكامو رواية جديدة قيد الطبع بعنوان « الانسان الاول » Le premier homme فلعل في هذا الكتاب بعض جواب على السؤال المطروح .

دار الثقافة ـ بيروت
تقدم
اكبر واوسع سلسلة في الادب الاندلسي
المكتبة الاندلسية ـ الكتاب الاول :

فن التوشيح

للدكتور مصطفى عوض الكريم
قدم له ـ الدكتور شوقي ضيف
دراسة اولى من نوعها في فن التوشيح
طباعة انيقة ـ ورق ممتاز
٣٠٠ صفحة من القطع الكبير الثمن ٣٠٠ ق.ل.

الكتاب الثاني

تاريخ الادب الاندلسي

« عصر سيادة قرطبة »
للدكتور احسان عباس

تطلب جميع هذه الكتب من الناشر دار الثقافة
ص.ب ٥٤٣ بيروت ـ تلفون ٣٠٥٦١ وعموم المكتبات

صدر حديثا

وضاح اليمن

أو

الطيف العائد

وهو الكتاب الاول من سلسلة
آفاق عربية
التي يكتبها ببيان مشرق

اكرم الرافعي

ويضع لوحاتها التاريخية
رضوان الشهال

الثمن ٢٥٠ ق.

دار العلم للملايين

في ذلك الوقت موافقة على الفكرة .

ومن الاسباب الرئيسية التي حملت كامو على الانضمام الى تحرير « الاكسبريس » رغبته في الاشتراك بالحملة التي تهدف الى اعادة منديس فرانس الى الحكم . ومنديس فرانس معروف بنزعته التحررية وايمانه بحق الشعوب في تقرير مصيرها . ويروي جان دانيال (٣) المحرر في هذه الجريدة انه كان يقدم الى كامو ، اثر كل رحلة صحفية كان يقوم بها الى الجزائر ، مجموعة من الوثائق عن اساليب التعذيب التي كان يقوم بها الفرنسيون تجاه الجزائريين العرب ، فيدفع كامو بعضها الى النشر ..

وحين اعلنت الثورة الجزائرية عام ١٩٥٦ ، آثر كامو ان ينسحب ويصمت ، كأنما سقط فريسة تمزق دام بسبب هذه التطورات . ومنذ اعلان تلك الثورة العظيمة ، اي منذ اكثر من خمس سنوات ، يلتزم الكاتب الفرنسي صمتا شبه مطلق في ما يمت اليها بصلة ، ويحاول ان يخرج من تمزقه بالانصراف الى بعض الاقتباسات المسرحية التي تحقق له الغيبة والفرار . ولعل اقتباس رواية فولكنر « انشودة الى قديسة » تشي بحنان خفي لدى كامو الى ان يقف من القضية الجزائرية موقفا ينحاز فيه كليا ونهائيا الى جانب الضحايا . ويذكر جان دانيال ان كامو « لم يكن يتردد قط في تقديم كل معلوماته وارائه الى لجنة الوقاية» حول شجب التعذيب والاعتقالات القسرية ، ولكنه كان يؤثر الايعلن ذلك على الملأ . ويضيف الكاتب بان مؤلف « الطاعون » صارحه قبل فترة وجيزة من موته بقوله : « يكفيني ، وانا اقرأ ما تكتب ، ان ادرك انك ممزق مثلي »

وبعد ، فنحن لا نود ان نبرر موقف كامو او نبرئه . فان الصمت نفسه هو اتخاذ موقف . وقد كان على كامو ، وهو الجزائري المولد ، ان يكون اعمق ادراكا لمأساة الجزائر من اي كاتب فرنسي آخر ، وان يتخذ منها الموقف الذي ينسجم مع ايمانه بالعدالة والتمرد والثورة . ولكننا في الوقت نفسه لا نستطيع ، ونحن نقرأ آثاره ونبحث في حياته عن اضواء تنيرها ، الا ان نجد شبح هذه المأساة مخيما فوق السطور .

لقد كان كامو يعتقد بأن عبثية الحياة تفرض عليه ان ينعزل عن الحياة ، وان يعيش عيشة المتوحد Solitaire ولكنه كان يدرك كل يوم ، أنه كانسان وكفنان ، لا يستطيع الا ان يعيش عيشة المشارك المتضامن Solidaire وهذا مغزى قصته الرائعة « جوناس » (٤). وذلك الصراع بين التوحد والتضامن هو الذي خلق في ضمير كامو ادمى تمزق نفسي وخلقي عرفه الادب العالمي الحديث .

سهيل ادريس

---

(٣) راجع مجلة « اكسبريس » العدد ٤٤٧

(٤) ترجمتها الى العربية عائدة مطرجي ادريس ونشرت في « الاداب » كانون الثاني ١٩٥٨

حامد

النابغة التركي في الخط العربي

بأحلى خطوط الوشي ما خطّ « حامد »
وتفديه امٌّ للربيع ، ووالدُ !

احاول بالتشبيه وصف سطوره ،
وان اعجز التشبيه ما انا ناشد :

فكالجيش ، هذا صفه غير ملتو ،
وكالغيد هذا سربه المتوارد .

لعمرك : ليس اثنان في العصر ، انما
اخو عبقريات المراقم واحد !

اذا خطّ شعرا جود الشعر خطّه .
كأن عليه ان تجود القصائد ...

وما ذاك صوغ اللفظ ، لكن روعة
لها من مصوغ الخط لمحٌ يشاهد !

***

أ « حامد» : تلك الضاد ، هل كحروفها
حلا لعيون اثمد ومراود ؟!

فسل قومك الترك الذين تغيروا
عن الضاد : هل قد ادرك الفقد فاقد !

هو الحلي جنب الحلي دون سطورها
فيا احرف اللاتين : اين القلائد ؟..

اذا « الفات » الضاد لاحت قدودها ،
بدا من قدود الغير قالٍ ، وحاسد .

وفي نقط « الثاآت » غمزٌ محبب ،
وفي « العين » غنجٌ ، فهي غيدآء ناهد .

ولله كم في « السين » روح لمقلة ،
لها من تعاريج ، هناك ، وسائد ...

***

لخطّك بات لحبر كالتبر غاليا ،
واطنب دلال ، وفصل شاهد .

وفي السبج اللماح قام معبّرٌ
يقول : الا اين الحلى ، والفرائد !..

امين نخله